سيّد قطب

تفسير سورة الشورى

دار الشروق



تفسير سورة الشورى

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

© دار الشروق

بيروت : ماراليـاس شارع سيدة عبد نايا - بناية صلحا ص.ب : ٨٠٦٤ - برقيا : داشروق
تلكس : ٢٠١٧٥ SHOROK LE هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٢٠٧٦٨٤ - ٨٦٧٥٥٥ - فاكس ٨١٧٧٦٥
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - ت : ٣٩٣٤٥٧٨ / ٣٩٢٤٥٧٨ فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس
٩٣٠٩١ SHOROK UN ٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر ت : ٢٦١٢٣٩٨ - ٢٦٢٣٥١٨ - فاكس ٢٦١٧٥٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم ١ عسق ٢ كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وإلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَهُو الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوقِهِنَّ وَالْمَلٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأرْضِ ألاَ إنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ دُونِهِ أوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦

(وَكَذلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ قُرآناً عَرَبِيّاً

لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ
الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ ٧ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ٨ أَمِ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ
وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ
جَعَلَ لَكُمْ من أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ
أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ
وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ
الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً
بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ١٤

(فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ

حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [١٥] وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ [١٦]

(اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ [١٧] يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ [١٨] اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [١٩] مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [٢٠] .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ٢٣ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢٤ .

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة، حتى ليصح أن يقال: إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها؛ وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها.

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية، وتعرضها من جوانب متعددة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها؛ ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها. وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها. كما تلم بقضية الرزق: بسطه وقبضه؛ وصفة الإنسان في السراء والضراء.

ولكن حقيقة الوحي والرسالة، وما يتصل بها، تظل - مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السور، والتي تطبعها وتظللها. وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها.

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة. فهي تعرض من جوانب متعددة. يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق. أو وحدانية الرازق. أو وحدانية المتصرف في القلوب. أو وحدانية

المتصرف في المصير .. ذلك بينا يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحي — سبحانه — ووحـدة الوحي . ووحدة العقيدة . ووحدة المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزاً واضحـاً ، بشتى معانيه وشتى ظلاله وشتى إيحاءاته ، من وراء موضوعات السورة جميعاً .. ونضرب بعض الأمثـلة من السورة إجمالاً ، قبل أن نأخذ في التفصيل :

تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم . عين . سين . قاف ». يليها : « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .. مقرراً وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين : « إليك وإلى الذين من قبلك » ..

ثم يستطرد السياق في صفة الله العزيز الحكيم : « له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم » .. مقرراً وحدانية المالك لما في السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطراداً آخر في وصف حال الكون تجـاه قضية الإيمان بالمالك الواحد ، وتجاه الشرك الذي يشذ به بعض النـاس : « تـكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ

عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » .. فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى أن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهــل الأرض ، بينما الملائكة يستغفرون لمن في الأرض جميعاً من هذه الفعلة الشنعاء التي جاء بها بعض المنحرفين!

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى : « وكذلك أوحينا إليــك ، قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولهـا ، وتنذر يوم الجمـع لا ريب فيـــه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » ..

ثم يستطرد مع « فريق في الجنة وفريق في السعير » .. فيقرر أن لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت – بماله من علم وحكمة – أن يدخل من يشاء في رحمته « والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » . ويقرر أن الله وحده هو الولي « وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحي والرسالة ، فيقرر أن الحكم فـيما يختلف فيــه البشر من شيء هو الله الذي أنزل هــذا القرآن ليرجع إليه الناس في كل اختلاف : « ومــا اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربي عليـــه توكلت ، وإليه أنيب » ..

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته . ووحدانية المتصرف في مقادير السماوات والأرض ، وفي بسط

الرزق وقبضه . وفي علمه بكل شيء : « فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ،ومن الأنعام أزواجاً، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم » ..

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من قبلهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ... الخ » ..

وعلى مثل هذا النسق تمضي السورة في عرض هذه الحقيقة ؛ محوطة بمثل هذا الجو ، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى ، المثبتة في الوقت ذاته للحقيقة الأولى التي تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسي .

وهذا النسق واضح وضوحاً كاملاً في هذا الدرس الأول من السورة . فالقارىء يلتقي بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحي والرسالة في جانب من جوانبها .

فأما الدرس الثاني ويؤلف بقية السورة ، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه ؛ وفي تنزيل الغيث برحمته ؛ وفي خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ؛ وفي الفلك الجواري في البحر كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب : « يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » .. واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين :

« وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » .. وفي ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ ، وما لكم من نكير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى في السورة . حقيقة الوحي والرسالة . في جانب من جوانبها : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ... » .

ويمضي سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة ، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة

وإشارة إلى تلك الحقيقة ، حتى يكون ختام السورة هذا البيان في شأن الوحي والرسالة : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه علي حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ؛ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » ..

* * *

وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة في سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفي هذا التتابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للبشرين ممثلة في الرسالة الأخيرة ، ورسولها ، والأمة المسلمة التي تتبع نهجه الإلهي الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .. لتقرر أن الله هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » .. لتقرر مركز القيادة الجديدة التي سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفي الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ما قرر في الإشارة الأولى وحدة المصدر : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ..

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفاً لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغياً وظلماً وحسداً : « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » ..

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ..

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم .. فرسالة السماء التي تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها في ريبة وفي شك لا تستقيم معهما قيادة راشدة .

ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها – ﷺ – لهـــذه القيادة : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ... الخ » .. ومن ثم تجيء صفة الجماعة المؤمنة المميزة لهـا طبيعية في سياق هذه السورة – في الدرس الثاني – بوصفها الجماعة التي ستقوم على قيادة هذه البشرية على ذلك النهج الثابت القويم .

وعلى ضوء هـذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسي والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحاً ..

* * *

« حم . عسق . كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له ما في السماوات ومـا في الأرض ، وهو العلي العظيم . تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » .

سبـق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائـل السور بما فيه الكفاية . وهي تذكر هنا في مطلع السورة ، ويليها قوله تعالى :

« كذلك يوحي إليـــك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » ..

أي مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحي إليك وإلى الذين من قبلك. فهو كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف الـتي يعرفها الناس ويفهمونها ويدركون معانيها ؛ ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحي . وحدة مصدره فالموحي هو الله العزيز الحكيم . والموحي إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحي واحد في جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان : « إليك وإلى الذين من قبلك » ..

إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة في أطواء الزمان . وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات . ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة ـــ عـلى هـذا النحو ـــ حين تستقر في ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة مـا هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه . وتشدهم إلى مصدر هـــذا الوحي : « الله العزيز الحكيم » .. كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبـين المؤمنين أتبـاع الوحي في كل زمان ومكان ، فهذه أسرتهم تضرب في بطون التاريخ ، وتمتد جذورها في شعاب الزمن ؛ وتتصل كلها بالله في

النهاية ، فيلتقون فيه جميعاً . وهو « العزيز » القوي القادر « الحكيم » الذي يوحي لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير . فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهي الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التي لا تؤدي إلى الله ؛ ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

ويستطرد في صفة الله الذي يوحي وحده إلى الرسل جميعاً ؛ فيقرر أنه المالك الوحيد لما في السماوات وما في الأرض ، وأنه وحده العلي العظيم :

« له ما في السماوات وما في الأرض ، وهو العلي العظيم » .

وكثيراً ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً ، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً . إنما الملك الحقيقي لله ؛ الذي يوجد ويعدم ، ويحيي ويميت ؛ ويملك أن يعطي البشر ما يشاء، ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب بما في أيديهم من شيء ، وأن يضع في أيديهم بدلاً مما أذهب . . الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق الناموس المختار ، فتلبي وتطيع وتتصرف وفق ذلك الناموس . وكل ما في السماوات وما في الأرض من شيء « لله » بهذا الاعتبار الذي لا يشاركه فيه أحد سواه . . « وهو العلي العظيم » . . فليس هو الملك فحسب ، ولكنه ملك العلو والعظمة

على وجه التفرد كذلك . العلو الذي كل شيء بالقياس إليـــه سفول ؛ والعظمة التي كل شيء بالقياس إليها ضآلة !

ومتى استقرت هـذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب . فكل ما في السماوات وما في الأرض لله . والمالك هو الذي بيده العطاء . ثم إنه هو « العلي العظيم » الذي لا يصغر ولا يسفل من يمد يده إليه بالسؤال ؛ كما لو مدهـا للمخاليق ، وهم ليسوا بأعلياء ولا عظماء !

ثم يعرض مظهراً لخلوص الملكيـة لله في الكون ، وللعلو والعظمة كذلك يتمثل في حركة السماوات تكاد تتفطر من روعة العظمة التي تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من في الأرض عنها . كما يتمثل في حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من انحرافهم وتطاولهم :

« تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم » ..

والسماوات هي هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي نراها تعلونا حيثما كنا على هذه الأرض ، والتي لانعلم إلا أشياء قليلة عن جانب منها صغير . وقد عرفنا حتى اليوم أن بعض ما في السماوات نحو من مئة ألف مليون مجموعة من الشموس في كل منها نحو مئة ألف

مليون شمس كشمسنا هـذه ، التي مبلغ حجمها أكثر من مليون ضعف من حجم أرضنا الصغيرة ! وهذه المجموعات من الشموس التي أمكن لنا – نحن البشر – أن نرصدنا بمراصدها الصغيرة، متناثرة في فضاءالسماء مبعثرة ، وبينها مسافات شاسعة تحسب بمئات الألوف والملايين منالسنوات الضوئية . أي المحسوبة بسرعة الضوء ، التي تبلغ ١٦٨و٠٠٠ ميل في الثانية !

هذه السماوات التي عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكدن يتفطرن من فوقهن .. من خشية الله وعظمته وعلوه ، وإشفاقاً من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة التي يحسها ضمير الكون ، فيرتعش ، وينتفض ، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه !

«والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض».

والملائكة أهـل طاعة مطلقة ، فقـد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة . ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم ، لما يحسون من علوه وعظمته ، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته . ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعـاف ينكرون وينحرفون ؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ؛ ويروحون يستغفرون لأهـل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير . ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا ، كالذي جاء في سورة غافر : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ،

ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا » .. وفي هــذه الحالة يبدو : كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض ، حتى من الذين آمنوا ، وكم يرتاعون لها ، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته ؛ واستهوالاً لأية معصية تقع في ملكه واستدراراً لمغفرته ورحمته ؛ وطمعاً فيهما :

« ألا إن الله هو الغفور الرحيم » ..

فيجمع إلى العزة والحكمة ، العـــلو والعظمة ، ثم المغفرة والرحمة .. ويعرف العباد ربهم بشتى صفاته .

وفي نهاية الفقرة — بعد تقرير تلك الصفات وآثارها في الكون كله — يعرض للذين يتخذون من دون الله أولياء . وقد بدا أن ليس في الكون غيره من ولي . ليعفى رسول الله — ﷺ — من أمرهم ، فما هو عليهم بوكيل ، والله هو الحفيظ عليهم ، وهو بهم كفيل :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

وتبدو للضمير صورة هؤلاء المناكيد التعساء ؛ وهم يتخذون من دون الله أولياء ؛ وأيديهم مما أمسكت خاوية ، وليس هنالك إلا الهباء ! تبدو للضمير صورتهم — في ضآلتهم وضآلة أوليائهم من دون الله . والله حفيظ عليهم . وهم في قبضته ضعاف صغار .

فأما النبي – ﷺ – والمؤمنون معه ، فهم معفون من التفكير في شأنهم ، والاحتفال بأمرهم ، فقد كفاهم الله هذا الاهتمام .

ولا بد أن تستقر هذه الحقيقة في ضمائر المؤمنين لتهدأ وتطمئن من هذا الجانب في جميع الأحوال سوا كان أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء أصحاب سلطان ظاهر في الأرض، أم كانوا من غير ذوي السلطان. تطمئن في الحالة الأولى لهوان شأن أصحاب السلطان الظاهر – مهما تجبروا – ما داموا لا يستمدون سلطانهم هذا من الله ؛ والله حفيظ عليهم ؛ وهو من ورائهم محيط ؛ والكون كله مؤمن بربه من حولهم ، وهم وحدهم المنحرفون كالنغمة النشاز في اللحن المتناسق ، وتطمئن في الحالة الثانية من ناحية أن ليس على المؤمنين من وزر في تولي هؤلاء غير الله ؛ فهم ليسوا بوكلاء على من ينحرفون من الخلق ؛ وليس عليهم إلا النصح والبلاغ . والله هو الحفيظ على قلوب العباد .

ومن ثم يسير المؤمنون في طريقهم . مطمئنين إلى أنه الطريق الموصول بوحي الله وأن ليس عليهم من ضير في انحراف المنحرفين عن الطريق . كائناً ما يكون هذا الانحراف .



ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن

حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولي . وهو يحيي الموتى . وهو على كل شيء قدير » ..

« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ... » ..

يعطف هـذا الطرف من حقيقة الوحي عـلى ذاك الطرف الذي بدأ به السورة . والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة ، وعربية القرآن ، مناسبة ظاهرة . فهذه أحرفهم العربية ، وهذا قرآنهم العربي . نزل الله بـه وحيه في هـذه الصورة العربية ، ليؤدي به الغاية المرسومة :

« لتنذر أم القرى ومن حولها » ..

وأم القرى مكة المكرمة . المكرمة ببيت الله العتيق فيها . وقد اختار الله أن تكون هي – وما حولها من القرى – موضع هذه الرسالة الأخيرة ؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه ويريده . و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وحـين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقرائها ، ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعد ما سارت هـذه الدعوة في الخط الذي سارت فيه ، وأنتجت فيـه نتاجها .. حـين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفاً من حكمة الله في اختيار هـذه

البقعة من الأرض ، في ذلك الوقت من الزمان ، لتكون مقر الرسالة الأخيرة ، التي جاءت للبشرية جميعاً والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة – عند مولد هذه الرسالة الأخيرة – تكاد تتقسمها امبراطوريات أربعة : الامبراطورية الرومانية في أوروبا وطرف من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الفارسية وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الهندية . ثم الامبراطورية الصينية . وتكادان تكونان مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها وهذه العزلة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتا الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها .

وكانت الديانتان السماويتان قبل الإسلام – اليهودية والنصرانية – قد انتهتا إلى أن تقعا – في صورة من الصور – تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة في الحقيقة ، ولا تسيطران على الدولة ! فضلاً على ما أصابهما من انحراف وفساد .

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة ، ولم تعد تسيطر في هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال ؛ وانتهت – بسبب عوامل شتى – إلى أن تكون ديانة مغلقة على بني إسرائيل ، لا مطمع لها ولا رغبة في أن تضم تحت جناحها شعوباً أخرى !

وأما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية . التي كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق التي انتشرت فيها المسيحية سراً ؛ وهي تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهاداً فظيعاً ، تخللته مذابح شملت عشرات الألوف في قسوة ظاهرة. فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني، ودخل الامبراطور الروماني في المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ؛ وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ؛ فلم تعد هي المسيحية السماوية الأولى . كما أن الدولة ظلت في طبيعتها لا تتأثر كثيراً بالديانة ؛ وظلت هي المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلاً . وذلك كله فضلاً على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل — فيما بينها — مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقاً . وأوقع في الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمي للدولة . وهؤلاء وهؤلاء كانوا في الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء !

وفي هذا الوقت جاء الإسلام . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمور . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى الله على هدى وعلى نور . ولم يكن هناك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة الضخمة في حياة البشر . فلم يكن هناك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها

لامبراطورية من تلك الامبراطوريات ؛ وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته ؛ بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله . وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات ، هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة . تقف للعقيدة الجديدة . بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعاً دقيقاً ، كما هو الحال في الامبراطوريات الأربعة .

ولم تكن هناك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ؛ فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى . وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام . ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين الجديد . ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ما وقفوا هذه الوقفة في وجه الإسلام . فقد كانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة واضطراب .

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الديني ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحرراً من كل سلطان عليه في نشأته ، خارج عن طبيعته .

في وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك في حماية نشأة الدعوة الجديدة . كان النظام القبلي هو السائد . وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام . فلما قـــام محمد – ﷺ – بدعوته وجد من سيوف بـــني هاشم حماية له ؛ ووجد من التوازن القبلي فرصة ، لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بني هاشم بسبب حمايتهم لمحمد – ﷺ – وهم على غير دينه . بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا في أول الدعوة ، وتدع تأديبه – أو تعذيبه – لأهـــله أنفسهم . والموالي الذين عذبوا لإسلامهم عــذبهم سادتهم . ومن ثم كان أبو بكر – رضي الله عنــه – يشتري هؤلاء الموالي ويعتقهم ، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتنتهم عن دينهم .. ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة . وهي استمدادات ضرورية لحـــل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

وقـــد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقـــة لبذور نهضة ؛ وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها في ضمير الغيب ؛ وكانت قـــد حفلت بتجارب إنسانية معينـــة من رحلاتهـــا إلى أطراف امبراطوريتي كسرى وقيصر. وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب

ورحلة الصيف إلى الشمال . المذكورتان في القرآن في قوله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هـذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . . وتضافرت أسبـاب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة . فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجه هذه الطاقة المختزنة ، التي كانت تتهيأ كنوزها للتفتح ؛ ففتحهـــا الله بمفتاح الإسلام . وجعلها رصيداً له وذخراً . ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول – ﷺ – من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . وحمزة والعباس وأبي عبيدة . وسعـــد ابن أبي وقاص وخالد ابن الوليد وسعد ابن معاذ ، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التي تلقت الإسلام ؛ فتفتحت له ، وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ؛ ولكنهـــا كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام .

وليس هنا مكان التفصيل في وصف استعداد الجزيرة لحمـل الرسالة الجديدة ، وصيانة نشأتها ، وتمكينهـــا من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارهـــا لتكون مهد العقيدة الجديدة ، التي جاءت للبشرية جميعها . وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هـــذه الرسالة – ﷺ – فذلك أمر يطول . ومكانه رسالة خاصة مستقلة .

وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التي يظهر التدبر والتفكر بعض أطرافها كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها . فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ، وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنساني الذي قام على أساسها ، للبشرية جميعها - كما هي طبيعة هذه الرسالة - وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ؛ وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض لميلادها ونشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول - ﷺ - حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ؛ ويتمخض هذا المهد للعقيدة التي أختير لها على علم . كما أختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى اقطار الأرض جميعاً . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانياً .. وقد كانت اللغة ، كأصحابها ، كبيئتها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم .

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه

الرسالة ، حينما وجه الباحث نظره إلى تدبر حكمة الله واختياره ومصداق قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..

« لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الإنذار بيوم الجمع . يوم الحشر . يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد : « فريق في الجنة وفريق في السعير » بحسب عملهم في دار العمل ، في هذه الأرض ، في فترة الحياة الدنيا .

« ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » ..

فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار. ولكنه — سبحانه — خلق هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة في هذه الأرض . وجعل من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذي أرادها ، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين ، وعن غيرهما من خلق الله ذوي الطبيعة المفردة الموحدة الاتجاه . استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح ؛ ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيىء . كل منهما يسلك وفق أحد الاحتمالات

الممكنة في طبيعة تكوين هـذا المخلوق البشري ؛ وينتهي إلى النهاية المقررة لهذا السلوك: «فريق فيالجنة وفريق فيالسعير».. وهكذا : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » وفق ما يعلمه الله من حال هـذا الفريق وذاك ، واستحقاقه للرحمة بالهداية أو استحقاقه للعذاب بالضلال .

ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء . فهو يقرر هنا أن الظالمين : « ما لهم من ولي ولا نصير » . . فأولياؤهم هم الذين يتخذونهم لا حقيقة لهم إذن ولا وجود .

ثم يعود فيسأل في استنكار :

« أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ » . .

ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولي ، وأنـه هو القادر تتجلى قدرته في إحياء الموتى . العمـل الذي تظهر فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها :

« فالله هو الولي ، وهو يحيي الموتى » . .

ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شيء والتي لا تنحصر في حدود :

« وهو على كل شيء قدير » . .

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التي يرجع إليها عند

كل اختلاف . وهي هذا الوحي الذي جاء من عند الله يتضمن حكم الله كي لا يكون للهوى المتقلب أثر في الحياة بعد ذلك المنهج الإلهي القويم :

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير. له مقاليد السماوات والأرض، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم » ..

وطريقة إيراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجمعها في هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر . فالترابط الخفي والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق .

إنه يرد كل اختلاف يقع بين الناس إلى الله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » .. والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن ؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة ؛ وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية ، وفي نظـــام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبين لهم هذا كله بياناً شافياً . وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل . فإذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله – ﷺ – لتقوم الحياة على أساسه .

وعقب تقرير هذه الحقيقة يحكي قول رسول الله ﷺ مسلماً أمره كله لله ، منيباً إلى ربه بكليته :

« ذلكم الله ربي عليه توكلت ، وإليه أنيب » ..

فتجيء هذه الإنابة ، وذاك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان رسول الله ﷺ في موضعها النفسي المناسب للتعقيب على تلك الحقيقة .. فهاهو ذا رسول الله ونبيه يشهد أن الله هو ربه ، وأنه يتوكل عليه وحده ، وأنه ينيب إليه دون سواه ، فكيف يتحاكم الناس إذن إلى غيره عند اختلافهم في شيء من الأمر ، والنبي المهدي لا يتحاكم إلا إليه ، وهو أولى من يتحاكم الناس إلى قوله الفصل ، لا يتلفتون عنه لحظة هنا أو هناك ؟ وكيف يتجهون في أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبي المهدي يتوكل على الله وحده ، وينيب إليه وحده ، بما أنه هو ربه ومتولي أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار ؟

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن ينير له الطريق ويحدد معالمه ، فلا يتلفت هنا أو هناك . ويسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يحتار . ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه في هذا الاتجاه . والنبي المهدي سالك هذا الطريق إلى الله .

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن يرفع من شعوره بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجاً آخر أو طريقاً يصح

أن يتلفت إليه ؛ ولا يجد أن هنالك حكماً غير قول الله وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه . والنبي المهدي ينيب إلى ربه الذي شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم .

ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقراراً وتمكيناً :

« فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً . يذرؤكم فيه . ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير » . .

فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شيء . . هو « فاطر السماوات والأرض » . . وهو مدبر السماوات والأرض . والناموس الذي يحكم السماء والأرض هو حكمه الفصل في كل ما يختص بهما من أمر . وشؤون الحياة والعباد إن هي الا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه فيها هو الحكم الذي ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا في سلام مع الكون الذي يحيط بهم ، والذي يحكم الله في أمره بلا شريك .

والله الذي يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو خالقهم الذي سوى نفوسهم ، وركبها : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » . . فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذي أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التي اختارها للأحياء جميعاً : « ومن

الأنعام أزواجاً » .. فهنالك وحدة في التكوين تشهد بوحدانية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود .. إنه هو الذي جعلكم — أنتم والأنعام — تتكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعاً ، فليس هنالك من شيء يماثله — سبحانه وتعالى — : « ليس كمثله شيء » .. والفطرة تؤمن بهذا بداهة . فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه . ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف فيما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف .

ومع أنه — سبحانه — « ليس كمثله شيء » .. فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويبصر : « وهو السميع البصير » .. ثم يحكم حكم السميع البصير .

ثم إنه إذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد ما فطرها أول مرة ، وشرع لها ناموسها الذي يدبرها : « له مقاليد السماوات والأرض » .. وهم بعض ما في السماوات والأرض ، فمقاليدهم إليه .

ثم إنه هو الذي يتولى أمر رزقهم قبضاً وبسطاً — فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض — : « يبسط الرزق لمن يشاء

ويقــدر » .. فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم و ساقيهم . فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنمـا يتجـه الناس إلى الرزاق الكافل المتصرف في الأرزاق . الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير : « إنه بكل شيء عليم » .. والذي يعـلم كل شيء هو الذي يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل ..

وهكذا تتساوق المعاني وتتناسق بهذه الدقة الخفية اللطيفة العجيبة ؛ لتوقع عــلى القلب البشري دقـّة بعد دقـّة ، حتى يتكامل فيها لحن متناسق عميق !

* * *

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« شرع لكم من الدين ما وصى بــه نوحــاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليــه من ينيب . ومــا تفرقوا إلا من بعدما جاءهم العلم - بغياً بينهم - ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون في الله

من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » ..

لقد جاء في مطلع السورة . « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .. فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر ، ووحدة المنهج ، ووحدة الاتجاه . فالآن يفصل هذه الإشارة ؛ ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو — في عمومه — ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه . ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهي القديم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض حجة الذين يحاجون في الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد .

ويبدو من التماسك والتناسق في هذه الفقرة كالذي بدا في سابقتها بشكل ملحوظ :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى . أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » ..

وبذلك يقرر الحقيقة التي فصلناها في مطلع السورة . حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة في أصول الزمان . ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع في حس المؤمن . وهو ينظر إلى سلفه في الطريق الممتدة من بعيد . فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام . .

نوح. إبراهيم. موسى. عيسى، محمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير. إنه سيستروح السير في الطريق، مهما يجد فيه من شوك ونصب، وحرمان من أعراض كثيرة. وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله. الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ.

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد، السائرين على شرعه الثابت؛ وانتفاء الخلاف والشقاق؛ والشعور بالقربى الوثيقة، التي تدعو إلى التعاون والتفاهم ووصل الحاضر بالماضي، والماضي بالحاضر، والسير جملة في الطريق.

وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى. ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى؛ وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين؟ ولِمَ لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»؟ فيقيموا الدين، ويقوموا بتكاليفه، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به؛ ويقفوا تحت رايته صفاً، وهي راية واحدة، رفعها على التوالي نوح وابراهيم وموسى وعيسى – صلوات الله عليهم – حتى انتهت إلى محمد ﷺ في العهد الأخير.

ولكن المشركين في أم القرى ومن حولها - وهم يزعمون أنهم على ملة ابراهيم - كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفاً آخر :

« كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » ..

كبر عليهم أن يتنزل الوحي على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن يتنزل « على رجل من القريتين عظيم » أي صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت في قريش . ما كان هذا كله يعدل في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان !

وكبر عليهم أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التي يقوم عليها هذا السلطان ؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذي دعاهم إليه الرسول الكريم .

وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين !

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذي يصطفي ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدي إليه من يرغب في كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين :

« الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » ..

وقد اجتبى محمداً ﷺ للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب .

ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين واحد ، فتفرق أتباعهم شيعاً وأحزاباً :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم - بغياً بينهم - ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ..

فهم لم يتفرقوا عن جهل ؛ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذي يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم . إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم . تفرقوا بغياً بينهم وحسداً وظلماً للحقيقة ولأنفسهم سواء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذاً عاجلاً ، جزاء بغيهم وظلمهم في هذا التفرق والتفريق . ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، بإمهالهم إلى أجل مسمى « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » . فحق الحق وبطل الباطل ؛ وانتهى الأمر في هذه الحياة الدنيا . ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التي ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من اتباع كل نبي ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ؛ إذ كانت الخلافات السابقة مثاراً لعدم الجزم بشيء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . »

وما هكذا تكون العقيدة . فالعقيدة هي الصخرة الصلبة التي يقف عليها المؤمن ، فتميد الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة الصلبة التي لاتميد . والعقيدة هي النجم الهادي الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشيء ولا لأمر في نفس صاحبها ، ولا قرار له على وجهة ، ولا اطمئنان إلى طريق .

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ؛ ويقودوا من وراءهم من البشر في غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون .

وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد .

يقول الأستاذ الهندي أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا

خسر العالم بانحطاط المسلمين » : « أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والإنحلال والإختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري »[1] .

ويقول الكاتب الأوربي « ج . هـ. دنيسون » في كتابه « العواطف كأساس للحضارة »[2] :

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ؛ ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى ، التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والإنحلال وأن البشريه توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والإنهيار ، بدلاً

---

(١) صفحة ٢٢ الطبعة الثانية .

(٢) ترجمة : Emotion as the Basis of Civilisation

من الإتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه » .. يعني محمداً ﷺ ..

ولأن أتباع الرسل تفرقوا ـ من بعد ما جاءهم العلم ـ ولأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم كانوا في شك منه مريب . . . لهذا وذلك ، ولخلو مركز القيادة البشرية من قائد ثبت مستيقن يعرف طريقه إلى الله .. أرسل الله محمداً ﷺ ووجه إليه الأمر أن يدعو وأن يستقيم على دعوته ، وألا يلتفت إلى الأهواء المصطرعة حوله وحول دعوته الواضحة المستقيمة ؛ وأن يعلن تجديد الإيمان بالدعوة الواحدة التي شرعها الله للنبيين أجمعين :

« فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا ، وإليه المصير » . .

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء . القيادة الحازمة الحاسمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون انحراف . وتنأى عن الأهواء المضطربة المتناوحة من هنا وهناك . القيادة التي تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة النهج والطريق . والتي ترد

الإيمان إلى أصله الثـابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك الأصل الواحد : « وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » . . ثم هو الإستعلاء والهيمنة بالحق والعدل. «وأمرت لأعدل بينكم». . فهي قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل في الأرض بين الجميـع . (هذا والدعوة بعد في مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هي وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة) . وتعلن الربوبية الواحدة : « الله ربنا وربكم » . . وتعلن فردية التبعة : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » . . وتعلن إنهاء الجـدل بالقول الفصل : « لا حجة بيننا وبينـكم » . . وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير : « الله يجمع بيننا وبينكم وإليـه المصير » . .

وتكشف هذه الآيـة الواحدة عن طبيعة هذه الرسـالة الأخيرة ، في مقاطعها القصيرة الفـاصلة على هذا النحو الجـامع الحازم الدقيق . فهي رسالة جاءت لتمضي في طريقها لا تتـأثر بأهواء البشر . وجـاءت لتهيمن فتحقق العـدالة في الأرض . وجـاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو في حقيقته موحد على مدى الرسالات ..

وبعـد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبـة المؤمنة لله هذه الإستجابة ، يبدو جدل المجادلين في الله مستنكراً لا يستحق الإلتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن

ولا حساب . فتنتهي هذه الفقرة بالفصل في أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد :

« والذين يحاجون في الله . من بعد ما استجيب له . حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » . .

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولا سلطان . ووراء الهزيمة والبطلان في الأرض ، الغضب والعذاب الشديد في الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح .

* * *

ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى :

« الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله في الآخرة من نصيب » . .

فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواءهم ؛ وأقام شرائعه على العدل في الحكم . العدل

الدقيق كأنه الميزان توزن القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات .

وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة والمناسبة ، بين هذا وهذه حاضرة، فالساعة هي موعد الحكم العدل والفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدري إن كانت على وشك :

« وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ » . .

والناس عنها غافلون ، وهى منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين :

« يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » . .

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها؛فلا عجب يستعجلون بها مستهترين.لأنهم محجوبون لا يدركون . وأما الذين آمنو فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون و وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون .

وإنها لحق . وإنهم ليعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

« ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » ..

فقد أوغلوا في الضلال وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد . .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذي يتفضل الله به على عباده :

« الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز » . .

وتبدو المناسبة بعيدة في ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك. ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب »..

فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر . فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً ؛ وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأوليه ؛ ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعاً وعرياً وعطشا ، وعجزاً عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو عليهم . ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة . وجعله فتنة وابتلاء .

يجزى عليها الناس يوم الجزاء .

ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار منهما ما يشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله في حرثه ، وأعانه عليه بنيته ، وبارك له في عمله. وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً . بل إن هذا الرزق الذي يعطاه في الأرض قد يكون هو بذاته حزث الآخره بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله في تثميره وتصريفه والإستمتاع به والإنفاق منه . . ومن كان يريد حزث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئاً. ولكن لم يكن له في الآخرة نصيب . فهو لم يعمل في حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك النصيب !

ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة ، تكشف عن الحماقة في إرادة حرث الدنيا ! فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه هؤلاء وهؤلاء . فلكل منهما نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له في علم الله . ثم يبقى حرت الآخرة خالصاً لمن أراده وعمل فيه !

ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء ؛ بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والإستعدادات الخاصه . وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء . ففي هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين في قضية الرزق . إنما يظهر الإختلاف والإمتياز هناك ! فمن هو الأحمق الذي يترك

حرث الآخرة . وتركه لا يغير من أمره شيئاً في هذه الحياة ؟ !

والأمر في النهاية مرتبط بالحق والميزان الذي نزل به الكتاب من عند الله . فالحق والعدل ظاهران في تقدير الرزق لجميع الأحياء . وفي زيادة حرث الآخرة لمن يشاء . وفي حرمان الذين يريدون حرث الدنيا من حرث الآخرة يوم الجزاء ...

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم . ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاؤن عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ؛ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور » . .

في فقرة سابقة قرر أن ما شرعه الله للأمة المسلمة هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو ما أوحى به إلى محمد ﷺ وفي هذه الفقرة يتساءل في استنكار عما هم فيه وما هم عليه ، من ذا شرعه لهم ما دام الله لم يشرعه ؟ وهو مخالف لما شرعه منذ ان كان هناك رسالات وتشريعات ؟

« أم لهم شركاء شرعوالهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » . .

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائناً من كان ؛ فالله وحـده هو الذي يشرع لعباده . بما أنه — سبحانه — هو مبدع هذا الكون كله، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس . وكل من عدا الله قـاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريـع لحياة البشر مع ذلك القصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة ؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أو لا يقتنعون بها ، وهم يجرؤون على استمداد التشريـع من غير ما شرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريـع الذي ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحـكم من الله ! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ! وليس أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله !

لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته . ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع في هذا كله أصولاً، وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مـع حاجات الحياة المتجددة ، في حدود المنهج الكلي والتشريعـات

العامة . فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى الله ؛ ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس ، لتبقى ميزاناً يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق .

بذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده. وهو خير الحاكمين . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ما وصى به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

« ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم » . .

فقد قال الله كلمة الفصل بإمهالهم إلى يوم القول الفصل . ولولاها لقضى الله بينهم ، فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عداه . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهلهم ليوم الجزاء .

« وإن الظالمين لهم عذاب أليم » . .

فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم . وهل أظلم من المخالفة عن شرع الله إلى شرع من عداه ؟

ومن ثم يعرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستهترون :

« ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » . .

والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم « مما كسبوا » فكأنما هو

غـــول مفزع ؛ وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون « وهو واقع بهم » .. وكأنه هو بذاته انقلب عذاباً لا مخلص منه ، وهـــو واقع بهم ».

وفي الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون . نجدهم في أمن وعافية ورخاء :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاؤن عند ربهم . ذلك هو الفضل الـــكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ..

والتعبير كله رُخاء يرسم ظلال الرخاء : « في روضات الجنات » .. « لهم ما يشاؤن عند ربهم » بلا حدود ولا قيـود . « ذلك هو الفضل الكبير » . . « ذلك الذي يبشر الله عباده » فهو بشرى حـــاضرة ، مصداقاً للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل الظليل يلقن الرسول ﷺ أن يقول لهم : إنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى الذي ينتهي بهم إلى هذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العـذاب الأليم . إنما هي مودته لهم لقرابتهم منه ، وحسبه ذلك أجرا :

« قل لا أسألكم عليه أجراً . إلا المودة في القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا . إن الله غفور شكور » .

والمعنى الذي أشرت إليه ، وهو أنه لا يطلب منهم أجرا ، إنما تدفعه المودة للقربى — وقد كانت لرسول الله ﷺ قرابة بكل بطن من بطون قريش — ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التي يحملها لهم، وهذا أجره وكفى !

هذا المعنى هو الذي انقدح في نفسي وأنا أقرأ هذا التعبير القرآني في مواضعه التي جاء فيها . وهناك تفسير مروي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أثبته لوروده في صحيح البخاري :

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة ، قال : سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه سأل عن قوله تعالى : « إلا المودة في القربى » فقال سعيد بن جبير : « قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت . إن النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة » .

ويكون المعنى على هذا : إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة . وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم إليه . فيكون هذا هو الأجر الذي أطلبه منكم لا سواه .

وتأويل ابن عباس — رضي الله عنهما — أقرب من تأويل سعيد ابن جبير — رضي الله عنه — ولكنني ما أزال أحس أن ذلك المعنى أقرب وأندى .. والله أعلم بمراده منا .

وعلى أية حال فهو يذكرهم ـ أمام مشهد الروضات والبشريات ـ أنه لا يسألهم عن شيء من هذا أجرا . ودون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجراً ضخماً ! ولـكنه فضل الله الذي لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العـدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل :

« ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » . .

فليس هو مجرد عدم تناول الأجر. بل إنها الزيادة والفضل. . ثم هي بعد هذا كله المغفرة والشكر :

« إن الله غفور شكور » . .

الله يغفر. ثم .. الله يشكر .. ويشكر من ؟ يشكر لعباده وهو وهبهم التوفيق على الإحسان. ثم هو يزيد لهم في الحسنات، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . فياللفيض الذي يعجز الإنسان عن متابعته . فضلاً عن شكره وتوفيته !



ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ فإن يشأ الله يختم عـلى قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور » .

هنا يأتي على الشبهة الأخيرة ، التي قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحي ، الذي تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته في الجولات الماضية :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ » . .

فهم من ثم لا يصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأته شيء من الله ؟

ولكن هذا قول مردود . فما كان الله ليدع أحدا يدعى أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويوحيه . وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته :

« فــإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته » .

وما كان ليخفى عليه ما يــدور في خلد محمد ﷺ حتى قبل أن يقوله :

« إنه عليم بذات الصدور » . .

فهي شبهة لا قوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المعهود عن علم الله بالسرائر ، وعن قدرته على ما يريد ، وعن سنته في إقرار الحق وإزهاق الباطل .. وإذن فهذا الوحي حق ، وقول محمد صدق ؛ وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال .. وبذلك ينتهي القول – مؤقتاً – في الوحي. ويأخذ بهم في جولة أخرى وراء هذا القرار .

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّآتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)
وَيَسْتَجِيبُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ
مَا يَشَاءُ إِنهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) .

(وَهُوَ الذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا
قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا
يَشَاءُ قَدِيرٌ ٢٩ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ٣٠ وَمَا
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٣١ .

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٢
إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى
ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ
عَنْ كَثِيرٍ ٣٤ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ٣٥ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ .
(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٣٦
وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ٣٨ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
يَنْتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ
عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَالِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَاوُلئِكَ مَا عَلَيْهِمَ مِنْ سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامُورِ ٤٣ .

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ٤٥ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ٤٦ .

(إسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللهِ مَالَكُمْ مِنْ مَلْجَاء
يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ٤٧ فَإِنْ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ
الْبَلاَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً
فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ٤٨ لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ
يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ٤٩ أَوْ
يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ
عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٍ ٥٠

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ
وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ٥١

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣

هـذا القسم الثـاني من السورة يمضي في الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفي صفة المؤمنين التي تميز جماعتهم .. وذلك بعد الحديث في القسم الأول عن الوحي والرسالة من جوانبها المتعددة .. ثم يعود في نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته . وبـين القسمين اتصال ظاهر ، فهمـا طريقان إلى القلب البشري ، يصلانه بالوحي والإيمان .

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصـالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط

الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض . ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير » . .

تجيء هذه اللمسة بعدما سبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، ومشهد الذين آمنوا في روضات الجنات. ونفى كل شبهة عن صدق رسول الله ﷺ فيما بلغهم به عن الله . وتقرير علم الله بذات الصدور .

تجيء لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة ، قبل أن يقضى في الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب على مصراعيه : فالله يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات ؛ فلا داعي للقنوط واللجاج في المعصية ، والخوف مما أسلفوا من ذنوب . والله يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها . كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها .

وفي ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم ، وهو يزيدهم من فضله . « والكافرون لهم عذاب شديد » . . وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقى فضل الله لمن يستجيب .

وفضل الله في الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود . فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعلمه — سبحانه — من أن هؤلاء البشر لا يطيقون — في الأرض — أن يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود .

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير » . .

وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق – مهما كثرت – بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده . هؤلاء البشر . لا يطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم في الرزق – من نوع ما يبسط في الآخرة – لبغوا وطغوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتملون إلا الى حد . والله بعباده خبير بصير . ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً ، بقدر ما يطيقون . واستبقى فيضه المبسوط ، لمن ينجحون في بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام . ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود .

* * *

« وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته وهو الولي الحميد » . .

وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده في الارض . وقد غاب عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الاول . . الماء . . وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعفهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا الارض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ،

ويترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحيـاة ، ويدب النشاط ، وتنفرج الأسارير ، وتنفرج الأسارير، وتتفتح القلوب، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء .. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تتفتح فيها أبواب الرحمة ، فتتفتح أبواب السماء بالماء.. « وهو الولي الحميد » . . وهو النصير والكافـل المحمود الذات والصفات . .

واللفظ القرآني المختار للمطر في هذه المناسبة .. «الغيث».. يلقى ظل الغوث والنجدة ، وتلبية المضطر في الضيق والكربة . كما أن تعبيره عن آثار الغيث .. « وينشر رحمته » يلقى ظلال النـداوة والخضرة والرجاء والفرح ، التي تنشأ فعلاً عن تفتح النبات في الارض وارتقاب الثمار . وما من مشهـــد يريح الحس والاعصاب ، وينديّ القلب والمشاعر ، كمشهد الغيث بعـد الجفاف . وما من مشهد ينفض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الارض تتفتح بالنبت بعد الغيث ، وتنتشي بالخضرة بعد الموات.

* * *

« ومن آياته خلق السماوات والارض ، وما بث فيهما من دابة . وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديـكم ، ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الارض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ..

وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار،قائمة تشهد بذاتها على ما جاء الوحي ليشهدبه،فارتابوا فيه واختلفوا في تأويله. وآية

السماوات والارض لا تحتمل جدلاً ولا ريبة . فهي قاطعة في دلالتها . تخاطب الفطرة بلغتها ، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، ولا غيره من خلق الله . ولا مفر من الاعتراف بمنشىء مدبر . فإن ضخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووحدة نواميسها الثابتة .. كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها . أما الفطرة فهي تتلقى منطق هذا الكون تلقياً مباشراً ، وتدركه وتطمئن اليه قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها .

وتنطوي آية السماوات والارض على آية أخرى في ثناياها : « وما بث فيهما من دابة » .. والحياة في هذه الارض وحدها — ودع عنك ما في السماوات من حيوانات أخرى لا ندركها — آية أخرى . وهي سر لم ينفذ الى طبيعته أحد ، فضلاً على التطلع الى إنشائه . سر غامض لا يدري أحد من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ! وكل المحاولات التي بذلت للبحث عن مصدره أو طبيعته أغلقت دونها الستر . والأبواب ؛ وانحصرت البحوث كلها في تطور الأحياء — بعد وجود الحياة — وتنوعها ، ووظائفها ؛ وفي هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء والنظريات . فاما ما وراء الستر فبقي سراً خافياً لا تمتد إليه عين ، ولا يصل اليه ادراك .. انه من أمر الله . الذي لا يدركه سواه .

هذه الأحياء المبثوثة في كل مكان . فوق سطح الارض وفي ثناياها . وفي أعماق البحر وفي أجوازالفضاء — ودع عنك تصور الأحياء الأخرى في السماء .

هذهالأحياء المبثوثة التي لايعلم الإنسان منها إلا النزر اليسير ، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور . هذه الاحياء التي تدب في السماوات والارض يجمعها الله حين يشاء ، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب !

وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سرباً من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم ، أو سرباً من النحل يطير من خلية لهم !

وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله . وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها الا" الله . وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله . وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله . وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة في كل مكان ، وقطعان من البشر مبثوثة في الأرض في مكان .. ومعها خلائق أربى عدداً وأخفى مكاناً في السماوات من خلق الله . . كلها . . كلها .. يجمعها الله حين يشاء ..

وليس بين بثها في السماوات والأرض وجمعها إلا كلمة تصدر. والتعبير يقابل بين مشهد البث ومشهد الجمع في لمحة على طريقة القرآن ؛ فيشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن !

وفي ظل هذين المشهدين يحدثهم عما يصيبهم في هذه الحياة بما كسبت أيديهم . لا كله . فإن الله لا يؤاخذهم بكل مايكسبون. ولكن يعفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكرهم به ، وهم قطاع صغير في عالم الاحياء الكبير .

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. وما أنتم بمعجزين في الارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ..

وفي الآية الأولى يتجلى عدل الله، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف . فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة منه وسماحة .

وفي الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز في الارض ، وما له من دون الله من ولي ولا نصير . فأين يذهب إلا أن يلتجيء إلى الولي والنصير ؟

* * *

« ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » ..

والسفن الجواري في البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله . آية حاضرة مشهودة . آيـة تقوم عـلى آيات كلها من صنع الله دون جدال . هذا البحر من أنشأه ؟ مَن مِنَ البشر أو غيرهم يدعي هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصـه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؛ وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ وهذه الريـح التي تدفع ذلك النوع من السفن التي كانت معلومة وقتها للمخاطبين (وغير الريح من القوى التي سخرت للإنسان في هذا الزمان من بخار أو ذرة أو ما يشاء الله بعد الآن) من جعلها قوة في هـذا الكون تحرك الجواري في البحر كالأعلام ؟ ..

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » .

وإنها لتركد أحياناً فتهمد هذه الجواري وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة !

« إن في ذلك لكل صبار شكور » ..

في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبـار شكور . والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن . الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء .

« أو يوبقهن بما كسبوا » . .

فيحطمهن أو يغرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصيـة

ومخالفة عن الإيمان الذي تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض بني الإنسان !

« ويعف عن كثير » ..

فلا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر منهم من آثام ، بل يسمح ويعفو ويتجاوز منها عن كثير .

« ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » ..

لو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه ، ويوقف سفائنهم ، وهم لا يملكون منها نجاة !

وهكذا يشعرهم بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة الدنيا . عرضة كله للذهاب . فلا ثبات ولا استقرار لشيء إلا الصلة الوثيقة بالله .

*

ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم الى كل ما أوتوه في هذه الارض متاع موقوت في هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفحة المؤمنين هؤلاء بما يميزهم ، ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وسمات !

« فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر

الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

لقد سبق في السورة أن صوّر القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغياً بينهم لا جهلاً بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى – عليهم صلوات الله – وهو يشير كذلك إلى أن الذين أورثوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ليسوا على ثقة منه ، بل هم في شك منه مريب .

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل – صلوات الله عليهم – فحال أولئك الذين لا يتبعون رسولاً ولا يؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها

إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها في الطريق الواصل الى الله ورب وهذا الوجود جميعاً .

ونزل الله الكتاب على عبده محمد — ﷺ — قرآناً عربياً ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقيم بهـا الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود ؛ وتحقق في الارض وجود هذه الدعوة كما أراها الله ، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية . نزلت قبل قيـام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمه : « أمرهم شورى بينهم » .. مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » .. مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة هو أن يصبروا والا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة

يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتـة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأســـاسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة بطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولاً ، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا .. ما هي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامــــة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق مما رزق الله . والانتصار من البغي . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها ؟ يحسن أن نبين هـــذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني .

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم . القيم الزائلة والقيم الباقية ؛ كي لا يختلط الأمر في نفوسهم ، فيختل كل

شيء في تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة :

« وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا . وما عند الله خير وأبقى » .

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاها الله لعباده في الارض تلطفاً منه وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع — ولو في القليل — ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقيـــة . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل لا يرفع ولا يخفض ، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانه ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع . « وما عند الله خير وأبقى » .. خير في ذاته . وأبقى في مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ، وهو بالقيــاس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد !

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم ما هو خير وأبقى ..

ويبدأ بصفة الإيمان : « وما عنــد الله خير وأبقى للذين آمنوا » .. وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم

في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود، وأنه من صنع الله ؛ وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله الى باريء الوجود في طاعة وسلام واستسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى باريء الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ، ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق ، ويقود البشرية في هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصي وتحقيق المغانم . إذ يصبح القلب متعلقاً بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس له من الأمر شيء . إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله ، وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل اليه مهمة القيادة كي لا يقنط اذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أوذي في

الدعوة ، ولا يغتر إذا ما استجـــابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير !

ولقد آمنت العصبـة الأولى من المسلمين إيماناً كاملاً أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيراً عجيبـاً . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في أخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هـذه العصبة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

يقول الاستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . عن هذا الإيمان :

« انحلت العقدة الكبرى – عقدة الشرك والكفر – فانحلت العقد كلها ، وجاهدهم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ، وانتصر الإسلام على الجاهليـة في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . . » [1]

« حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم – بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم – وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ،

---

(١) ص ٧٣ الطبعة الثانية .

وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغـــد ، لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمــة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجـــارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهـداء لله عـلى أنفسهم أو الوالدين والأقربين . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمـــة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله ... » [1]

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول :

« كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصي بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى ؛ فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، وليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفـــة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله ، وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ

(١) ص ٧٤ الطبعة الثانية .

فن التاريخ، يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكاً من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة ...

« ... انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى. آمنوا برب العالمين، الرحمان الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق ، البارىء ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ... إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه. يثيب بالجنة ويعذب بالنار، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والارض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيباً . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن . تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ،

وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جرائم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلاً غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والاخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق »[1] .

« وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ، ووخزاً لاذعاً للضمير ، وخيالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً ، تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة[2] » .

« ... وكان هذا الإيمان حارساً لامانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزّع أمام المطامع والشهوات الجارفة ،

---

(١) ص ٧٥ - ٧٦ الطبعة الثانية .

(٢) ص ٧٦ .

وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الامانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان [1] » .

« وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والإجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام، ولا ينخرطون في سلك ، يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك السلطان ، والأمر والنهي، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا أنفسهم القادة، واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولايسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون، ولا يصلون ولا يقطعون، إلا بإذنه ووفق أمره»[2]

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة

---

(١) ص ٧٧ .

(٢) ص ٨١ .

التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقتضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها :

« وعلى ربهم يتوكلون » . .

وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه ، ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحداً إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ؛ قرير النفس في السراء، لاتستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد، الذي يحتمل تبعة ارتياد الطريق .

« والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش » . .

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان

ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصبة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقتطفات السابقة وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوقة . ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدي به من يشاء في معترك الشهوات ! .

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة ، والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش . لا صغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تخجل والعفو يثير في القلب الكريم معنى الحياء « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ..

وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه ، فتحبب في السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون .

وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته . وهو ليس شراً كله . فالغضب لله

ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة ، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذه صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة . هذا مع أنه عرف عن رسول الله ﷺ أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء. ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحببهم فيها . إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والإستعلاء على شعور الإنتقام ، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

« والذين استجابوا لربهم » . .

فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . . عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها . . وهذه هي الإستجابة في عمومها . .ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة :

« وأقاموا الصلاة » ..

وللصلاة في هذا الدين مكانة عظمى ، فهي التالية للقـــاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـــداً رسول الله . وهي صورة الإستجابة الأولى لله . وهي الصلة بين العبـــد وربه . وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجدا ، لا يرتفع رأس على رأس ولا تتقدم رجل على رجل !

ولعـــله من هذا الجانب أتبـــع إقامة الصلاة بصفة الشورى — قبل أن يذكر الزكاة :

« وأمرهم شورى بينهم » ..

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحيـــاة كلها بهذه الصبغة . وهو كما قلنا نص مكي : كان قبل قيام الدولة الإسلامية فهذا الطابع إذاً أعم وأشمـــل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابـــع الجماعة الإسلامية في كل حـــالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد .

والوقـــع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتيـــة . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفرديـــة والجماعية .

ومن ثم كان طابـــع الشورى في الجماعة مبكرا ؛ وكان مدلوله أوسع وأعمـــق من محيط الدولة وشؤون الحـــكم فيها . إنه

طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهي من ألزم صفات القيادة

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكييف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء .. وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة — في أصولها الإعتقادية البحتة ، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها ـ تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري ، يهيء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ؛ ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود مسلمين، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي . .

ومتى وجد المسلمون حقاً ، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته، نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها؛ وتحقق المبادىء الإسلامية الكلية خير تحقيق .

« ومما رزقناهم ينفقون » . .

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حددت في السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهاً مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها .

ولا بد للدعوة من الإنفاق . لا بد منه تطهيراً للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح . ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره . وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، ونزولهم على إخوانهم في المدينة . حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة بهذه للقيادة الصفات . .

« والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » . .

وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف. فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة . صفة الإنتصار من البغي، وعدم الخضوع للظلم وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؛ وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل ؛ وهي عزيزة بالله . « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . . فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة ، ولمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي :

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسي والإجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قبلياً مخلخلا . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إذا كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه ولم يقع إلا في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة – كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالباً . ولم يكن

الرسول ﷺ يحب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين. وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الإعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر في مكة . مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ..

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » . .

فهذا هو الأصل في الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كي لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة . فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء . فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجيء ضعفاً يخجل ويستحي ، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى . والقوي الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو . فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز . وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز . فليس له ثمة وجود . وهو شر يطمع المعتدي ويذل المعتدى عليه ، وينشر في الأرض الفساد !

« إنه لا يحب الظالمين » . .

وهذا توكيد للقاعدة الأولى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد في الإعتداء ، من ناحية أخرى .

وتوكيد آخر أكثر تفصيلا :

« ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق. أولئك لهم عذاب أليم » . .

فالذي ينتصر بعد ظلمه ، ويجزي السيئة بالسيئة ، ولا يعتدي ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقة المشروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولايجد من يقاومه ويقتص منه. والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والإعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية ، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لااستخذاء ؛ وتجملا لا ذلا :

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . .

ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الإعتدال والتوازن بين الإتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي. وتعلقها بالله ورضاه في كل حال . وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعـاً مميزاً للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خـير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ..

* * *

وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هـو خير وأبقى ، يعرض في الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران :

« ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ؛ وترى الظالمين لما رأوا العـذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ وتراهم يعرضون عليها خـاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقـال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؛ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضلل الله فما له من سبيل » . .

إن قضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها « ومن يضلل الله فما له من ولي من بعـده » . . فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، فحقت عليه كلمـة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولي يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضـلال الذي قـدره الله .. والذي يعرض منه مشهداً في بقية الآية :

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من

سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » ..

والظالمون كانوا طغاة بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون في انكسار: « هل إلى مرد من سبيل ؟» في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والإنهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار « خاشعين » لا من التقوى ولا من الحياء ، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار : « ينظرون من طرف خفي » .. وهي صورة شاخصة ذليلة .

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون : « وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » .. وهم هؤلاء الذين خسروا كل شيء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟

ويجيء التعليق العام على المشهد بياناً لمآل هؤلاء المعروضين على النار :

ألا إن الظالمين في عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . ومن يضلل الله فما له من سبيل » ..

فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل .

* * *

وفي ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المستكبرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيهم ، ولانصيراً ينكر مصيرهم الأليم ، ويوجه الرسول ﷺ إلى التخلي عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ؛ فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل :

« استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، مالكم من ملجإ يومئذ ومالكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ » ..

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذي يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب ، وهو لا يحتمل في نفسه الأذى ، وهو رقيق الإحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق !

« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » ..

ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء ومن العطاء والحرمان كله بيد الله. فمال هذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره في جميع الأحوال :

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير » . .

والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان ؛ وهي قريبة من نفس الإنسان ؛ والنفس شديدة الحساسية بها . فلمسها من هذا الجـانب أقوى وأعمق . وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة في الرزق بالذرية . وهي رزق من عند الله . كالمال .

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابـع هـذا الملك العام . وكذلك ذكر : « يخلق ما يشاء » .. فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضع . ورد الإنسان، المحب للخير ، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرّ وما يسوء ومن عطاء أو حرمان .

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان : فهو يهب لمن يشاء إناثاً (وهم كانوا يكرهون الإناث) ويهب لمن يشاء الذكور . ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء . ويحرم من يشاء فيجعـله عقيماً (والعقم يكرهه كل الناس) .. وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته : « إنه عليم قدير » .

* * *

وفي ختام السورة يعود السياق الى الحقيقة الأولى التي تدور عليها السورة . حقيقة الوحي والرسالة يعود الى هـذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ، وفي أية صورة يكون ويؤكد أنه قد وقع فعلاً الى الرسول الأخير

ﷺ لغايـــة يريدها الله سبحانه . ليهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

«وما كان لبشرأن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي بــــه من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهـــدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمــه الله مواجهة . وقد روى عن عائشة رضي الله عنها : « من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية »[1] إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث : « وحياً » يلقى في النفس مبــاشرة فتعرف أنه من الله ، « أو من وراء حجاب » .. كما كلم الله موسى – عليه السلام – وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلي الله على الجبل « وخر موسى صعقا فلمــا أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » .. « أو يرسل رسولا» وهو الملك « فيوحى بإذنـــه ما يشاء » بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ .

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه

---

(١) متفق عليه .

كما قال ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .. والثانية : أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول . والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد ابن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم [1] .

هذه صور الوحي وطرق الاتصال .. « إنه عليّ حكيم » .. يوحي من علو ، ويوحي بحكمة إلى من يختار ..

وبعد فإنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة في أوصالي.. كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التي ليس لها حيز في المكان ولا حيز في الزمان ، المحيطة بكل شيء ، والتي ليس كمثلها شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة في المكان

---

(١) عن « زاد المعاد » للإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية .

والزمان ، محدودة بحدود المخلوقات، من أبناء الفناء ؟! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات ؟

وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلي الأبدي الذي لا حيز له ولا حدود ؟ ولا شكل له معهود ؟

وكيف ؟ وكيف ؟..

ولكني أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية؟! لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة . وصار لها وجود هو الذي تملك أن تدركه من وجود .

ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقاً . وإن لحظة التلقي هذه لعظيمة حقاً . تلقي الذات الإنسانية لوحي من الذات العلوية .. أخي الذي تقرأ هذه الكلمات ، أأنت معي في هذا التصور ؟ ! أأنت معي تحاول أن تتصور ؟ ! هذا الوحي الصادر من هناك . أأقول هناك ؟ ! كلا. إنه ليس « هناك » الصادر من غير مكان ولا زمان ، ولا حيز ولا حد ولا جهة ولا ظرف . الصادر من المطلق النهائي ، الأزلي الأبدي ، الصادر من الله ذي الجلال . إلى إنسان . . إنسان مهما يكن نبياً رسولاً ، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود .. هذا الوحي . هذا الاتصال العجيب . المعجز . الذي لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق . . أخي الذي تقرأ هذه الكلمات . هل

تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة التي أحاول أن أنقل بها ما يخالج كياني كله ؟ إنني لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كياني كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم الخارق في طبيعته ، والخارق في صورته ، الذي حدث مرات ومرات . وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأي العين ، على عهد رسول الله ﷺ . وهذه عائشة رضي الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة في تاريخ البشرية فتروي عن واحدة منها تقول : « قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة . هذا جبريل يقرئك السلام » قلت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى ما لا نرى [1] » . وهذا زيد ابن ثابت — رضي الله عنه — يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله ﷺ على فخذه ، وقد جاءه الوحي فثقلت حتى كادت ترض فخذه . وهؤلاء هم الصحابة — رضوان الله عليهم — في مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه في وجه الرسول ﷺ فيدعونه للوحي حتى يسرى عنه ، فيعود إليهم ويعودون إليه ...

ثم.. أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التي تتلقى ذلك الاتصال العلوي الكريم؟ أي جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذي يتصل بهذا الوحي ، ويختلط بذلك العنصر ، ويتسق مع طبيعته وفحواه ؟

---

(١) أخرجه البخاري .

إنها هي الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنهـا تتراءى هنالك بعيداً على أفق عال ومرتقى صـاعد ، لا تـكاد المدارك تتملاه !

روح هذا النبي ﷺ روح هذا الإنسان . كيف يا ترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقي ، كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجد الوجود في هذه اللحظات العجيبة التي يتجلى فيها الله على الوجود ؛ والتي تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟

ثم . . أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ . . والله العلي الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة بالإنسان . فيوحي إليها لإصلاح أمرها ، وإنارة طريقها ، ورد شاردها . . وهي أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟!

إنها حقيقة . ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا تطلعاً إلى الأفق السامق الوضيء :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا الى الله تصير الأمور » .

« وكذلك » . بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هـذا الاتصال .

« أوحينا إليك » .. فالوحي تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعاً . أوحينا إليك « روحاً من أمرنا » . . فيه حياة ، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفي الواقع العملي المشهود . « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » . . هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحي . وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفاً في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة ، فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها في الضمير . وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي لابس قلب محمد — عليه صلوات الله .

« ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء » . وهذه طبيعته الخالصة . طبيعة هذا الوحي هذا الروح . هذا الكتاب . إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء لها الله أن تهتدي به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها .

« وإنك لتهدي الى صراط مستقيم » .. وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى ، بمشيئة الله سبحانه ، وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذي لا يعرفه سواه ؛ والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله ، فهو لا ينشيء الهدى في القلوب ؛ ولكن يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله .

« وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » .. فهي الهداية إلى طريق الله ، الذي تلتقي عنده المسالك ، لأنه الطريق إلى المالك ، الذي له ما في السماوات وما في الأرض ؛ فالذي يهتدي الى طريقه يهتدي الى نامـــوس السماوات والأرض ، وقوى السماوات والأرض ، ورزق السماوات والأرض ، واتجـــاه السماوات والأرض الى مالكها العظيم . الذي إليه تتجه ، والذي إليه تصير :

« ألا إلى الله تصير الأمور » ..

فكلها تنتهي إليه ، وتلتقي عنده ، وهو يقضي فيها بأمره.

وهذا النور يهدي الى طريقه الذي اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا اليه في النهاية مهتدين طائعين .

❋

وهكذا تنتهي السورة التي بدأت بالحديث عن الوحي. وكان الوحي محورها الرئيسي . وقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات الأولى . لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق. ولتعلن القيادة الجديـدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد ﷺ وفي العصبة المؤمنة بهذه الرسالة . ولتكل إلى هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز ، الذي تصلح به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانـة التي تنزلت من السماء الى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم ..

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات مفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق
المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد

الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب
الإمام الغزالي

الأدب في الدين
الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي

قضايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك

الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي

تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

رقم الإيداع : ٥٩٢٦/ ٨٨
الترقيم الدولى . ٠ ـ ٢٦١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

بيروت: مار الياس، شارع سيدة ميدايا، بناية صفا، ص ب: ٨٠٦٤ - برقيا: داشروق
تلكس: ٢٠١٧٥ [illegible] هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٣٠٧٦٨١ - ٨٦٧٥٥٥ - فاكس ٨١٧٧٦٥
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني، ت: ٣٩٣٤٥٧٨/٣٩٣٣٣٩٩ فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس
٩٣٠٩١ [illegible] ٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر: ٢٦٢٣٣٩٨ - ٢٦٢٢٥٤٨ - فاكس ٦١٧٥٦٧